ذاكرة النكبة في "اسرائيل"

نظرة المجتمع "الإسرائيلي" إلى المأساة الفلسطينية

بقلم توماس فسكوفي

من إصدار لارمتان، ٢٠١٥، فرنسا

يندرج هذا الكتاب الموجّه إلى الجمهور الناطق بالفرنسية في التيار المتصاعد المنتقد للكيان المحتل، من خلال بعض مثقفيه وناشطيه، دون المسّ جوهريا بفكرة إقامة كيان استعماري استيطاني في فلسطين. فينطلق المؤلف وهو قد ناقش مضمون كتابه في عام ٢٠١٤ كبحث في إحدى جامعات باريس، من ضرورة الجمع بين "الروايتين"، الرواية الفلسطينية للنكبة والرواية "الإسرائيلية" الناقدة التي يبثها "المؤرخون الجدد" في دولة الاحتلال، لبناء مستقبل "مشترك" للشعبين، الفلسطيني و"الإسرائيلي" والعيش بسلام، حيث تكمن إحدى شروطه في "التعرف على جرح الآخر والاعتراف المتبادل به"، كما أكّد الكاتب والصحافي دومنيك فيدال في مقدمة الكتاب.

يعتمد المؤلف على كتابات "المؤرخين الجدد" في الكيان المحتل لدحض الأسطورة التي بناها الجيش الصهيوني حول عملياته في فلسطين عام ١٩٤٨ وعمليات العصابات التي كوّنته لاحقا، من ارتكاب المجازر بحق الفلسطينيين وعمليات الطرد الجماعي التي نفذها وفقا لمخططات مسبقة، ويعرض مسيرة هؤلاء المؤرخين، الذين واجهوا انتقادات لاذعة من قبل المؤسسة الصهيونية، لأنهم أدخلوا الشك بالرواية الرسمية التي تبنّتها الدول الغربية ومعاهدها العلمية، وبالتالي فسحوا المجال للتمادي في نقد ممارسات دولة الاحتلال. رغم إنغماس معظم هؤلاء المؤرخين في الفكر الصهيوني ودفاعهم عن "بطولة المقاتلين اليهود" المدافعين عن الكيان اليهودي الجديد، استطاعوا نبش الأرشيف الصهيوني والبريطاني في بداية الثمانينات من القرن الماضي لتسليط الضوء على بعض الفظائع التي ارتكبتها تلك العصابات ثم الجيش الصهيوني بعد تشكيله في ٣١ أيار ١٩٤٨ بحق الفلسطينيين، وعلى عملية "التطهير العرقي" الممنهج التي نفذتها.

يؤكد المؤلف، من جهة، على الطبيعة الإستعمارية للدولة الاصهيونية، وينتقد القراءات الأوروبية والغربية لفلسطين ما قبل الإستيطان الصهيوني، من خلال العديد من الرحالة والمستكشفين الذين غيّبوا الشعب الفلسطيني في كتاباتهم، وكأنها كانت "أرض بلا شعب" بانتظار من يسكنها، ولكنه من جهة أخرى، يغيّب المؤرخين الفلسطينيين والعرب (إلا المعترف بهم من قبل الأكاديمية الغربية) ورواية اللاجئين أنفسهم، أي الناجين من المذابح، كما يغيّب المقاومة الفلسطينية ضد العصابات الصهيونية والبريطانيين في سرده للوقائع. وهنا تكمن إشكالية يقع فيها بعض الكتاب، عندما يتناولون أحداث النكبة وما قبل النكبة، أو الأحداث الحالية (مقاومة مخيم جنين أو قطاع غزة على سبيل المثال)، في محاولتهم لإبطال الرواية الصهيونية.

تروّج تلك الرواية أن عمليات القتل الجماعي والطرد وتدمير القرى حصلت ردا على أفعال "العصابات المسلحة العربية" أي الفلسطينيين وجيش الإنقاذ العربي أو بعض تشكيلاته المقاومة، وأنها تندرج في عملية الدفاع عن النفس، من قبل الصهاينة. في المقابل، يتنكر بعض الكتاب لمقاومة الشعب الفلسطيني سعيا لتسليط الضوء على المجازر الصهيونية، وكأن الحديث عن المقاومة، وإن كانت ضعيفة وغير مؤثرة لمواجهة عصابات وجيش العدو، سيدعم الدعاية الصهيونية، دون الأخذ بعين الإعتبار أن المقاومة ضد الإستيطان الصهيوني مشروعة وسقوط "٦٠٠٠ قتيل من اليشوف" خلال "أول الحروب العربية-الإسرائيلية" مبرّر للدفاع عن فلسطين وشعب فلسطين، وأن فعل المقاومة لا ينفي صفة المظلوم عن الشعب الفلسطيني، بل يؤكد على حقه برفع الظلم عنه.

يجد القارئ في هذا الكتاب وصفا مميزا للمجتمع الاستيطاني، من منطلق رؤيته للنكبة الفلسطينية، سواء اعترف بها أم لم يعترف، وسبب عدم اعترافه بها إذ إن الإعتراف بالنكبة يسقط حق وجود الكيان الذي بنى ادعاءاته على أساس أن فلسطين هي "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، وتبرير المؤسسة وأكثرية المجتمع لهذه النكبة. إن ارتكاب المجازر وطرد السكان تم تبريرهما من قبل أذرع المؤسسة الصهيونية بالحجج التالية : عدم الإعتراف الفلسطينيين والعرب بقرار التقسيم، الأعمال "العدائية" العربية، والدفاع عن آخر معقل لليهود في العالم بعد "المحرقة" في أوروبا. وفي هذا الخصوص، ينقل المؤلف عدد من شهادات جنود صهاينة كانوا قد شاركوا في ارتكاب مجازر بحق الفلسطينيين، يؤكدون فيها أنهم قاتلوا الفلسطينيين بصفتهم "نازيين" وأنهم كانوا، بقتلهم وتشريدهم للشعب الفلسطيني، يشنون حربا ضد النازية الأوروبية.

ثم يحلل المؤلف أسباب هذه العقدة الجماعية التي يعاني منها المجتمع الصهيوني. فبالرغم من كونه مجتمع استعماري، يرفض المجتمع الصهيوني هذه الصفة ويدعي أنه يحارب "التخلّف الشرقي" الذي يميّز المجتمعات العربية والإسلامية، وهو بذلك منسجم تماما، كما يعترف المؤلف، مع التيارات السياسية الغربية التي اعتبرت أن الإستعمار والتيار التقدمي تشاركا فكرة تعميم الحداثة الضرورية على المجتمعات غير الأوروبية. والسبب الآخر لهذه العقدة يكمن في التعليم حيث يتعلم الأطفال مبادئ كراهية الفلسطيني والعربي بشكل عام ونفي صفتهما الإنسانية، ما يبرر لهم لاحقا ارتكاب الجرائم كالتي ارتكبها آباؤهم خلال النكبة. ويعود السبب الثالث، وفقا للمؤلف، الى "المحرقة" التي عانى منها يهود أوروبا، غير أن المؤسسة الصهيونية جعلت منها "مصنعا" (ينتقد الكاتب الأميركي اليهودي فلكنشتاين "صناعة المحرقة" من قبل الكيان الصهيوني) وعممت ذكرها لكل يهود العالم، رغم عدم معايشتهم لها، كاليهود في الدول العربية والإسلامية والإفريقية مثلا. فأصبحت "المحرقة" أهم حدث في تاريخ اليهود، بل في

العالم بأسره، كما تحاول المؤسسة الصهيونية ترسيخه من خلال إقامة مناسبات ومتاحف في دولة الكيان ودول أخرى في العالم. فلذلك يدعي المؤلف أن "المحرقة" مؤسِسة أيضا لمصير الشعب الفلسطيني، حيث أنها "برّرت للعالم إقامة دولة يهودية في فلسطين".

انطلاقا من هذه المعطيات، بحث المؤلف تطور الإعتراف بالنكبة الفلسطينية من قبل المجتمع الصهيوني. بعد الإنفتاح المؤقت على التاريخ الفلسطيني الذي ساد بعد الإنتفاضة الأولى والناتج، بالنسبة له، عن كتابات "المؤرخين الجدد" وليس عن إتفاقيات أوسلو، أي لأسباب داخلية وتطوّر المجتمع الصهيوني نحو "الأفضل". ولكن عاد هذا المجتمع الى الإنكماش على الذات بعد إنتفاضة الأقصى وإعلان الحرب على "الإرهاب" من قبل الولايات المتحدة والدول الغربية. فتراجع الإعتراف بالنكبة الفلسطينية وأصدرت الحكومة الصهيونية تعليماتها لمنع إحياء ذكراها من قبل فلسطينيي الداخل ولفرض تعليم مبادئ الصهيونية في المناهج، في الوقت الذي وسّعت فيه مناسبات إحياء ذكرى "المحرقة" لدى الجمهور الصهيوني. مقابل جمعية "زخروت" اليهودية (تأسست عام ٢٠٠٢) التي تنشط لإحياء ذكرى النكبة وبعض الجمعيات والشخصيات الفلسطينية المطبّعة التي تدعو الى السلام والى كتابة "التاريخ المشترك للشعبين"، على أساس الإعتراف بالنكبة الفلسطينية وب"المحرقة" اليهودية، تقف اليوم جمعيات صهيونية متطرفة مثل "أم ترزو" تدعو الى حماية المجتمع الصهيوني من الأفكار والممارسات "الهدامة" المتمثلة بالجمعيات والشخصيات التي تنتقد دولة الإحتلال، والى ترسيخ الرواية الرسمية الصهيونية.

رغم هذا الإنكماش على الذات للمجتمع الصهيوني، يعتبر المؤلف أن تيار الإعتراف بالنكبة الفلسطينية يسير الى الأمام وأن هذا الإنكماش مؤقت وعابر، ذلك لأن "المؤرخين الجدد" وضعوا أسس هذا الإعتراف ولأن جمعية مثل "زخروت" تنشط وسط المجتمع الصهيوني لتغيير المفاهيم السائدة الى اليوم.

مثل العديد من مناصري القضية الفلسطينية في الغرب، يعتبر المؤلف أن اليسار غير الصهيوني، أي الأقلية الفاعلة داخل المجتمع الصهيوني والتي تمثل أقل من واحد في المئة منه، الى جانب بعض التيارات والشخصيات الفلسطينية التي "فهمت أن إسرائيل أصبحت متجذرة في المنطقة" هي التي سترسم مستقبل هذه البلاد التي يسمونها "إسرائيل-فلسطين"، بعيدا عن المقاومة والحركات الإسلامية والقومية والشعوب العربية والإسلامية.